جهود المستشرق كراتشكوفسكي في البلاغة العربية

د. زهير احمد المنصور(*)

يهدف هذا البحث للتعرف على حركة الاستشراق في العالم العربي وبيان دورها وخاصة حركة الاستشراق الروسي التي بدأت في القرن الثامن عشر، ويمثل هذه الحركة المستشرق المعروف كراتشكوفسكي.

كما يهدف لتأكيد دور هذا المستشرق الروسي الذي استطاع باستنتاجاته المتبصرة أن يقف على قضايا نقدية وبلاغية ليبين أسبقية العقل العربي إليها مثل قضية ولادة الشعر العربي وقضية البديع العربي، كما يبين الجهود التي قدمها هذا المستشرق للأدب العربي عامة ليكون بذلك من المستشرقين القلائل الذين خدموا العربية والعروبة.

(*) أستاذ مشارك / قسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة مؤتة.

This study at attempts to identity itself with the Movement of Orientalism in the Arab world, and, in particular, that of Russian Orientalism which began in the eighteenth century and which was represented by KRATCHKOVSRY a well-known scholar.

The study aims at emphasising the role of the Russian scholar whose insightful conclusions reveal critical and rhetorlcal issues articulating the superiority of the Arab Mind over the Greek one. These issues in which the Arab mind singularises itself show that poetry and rhetoric are originally some of its productions.

The importance of the Russian scholar is that he is among the few who have usefully revealed the unique role of the Arabs this realm.

جهود المستشرق كراتشوكوفسكي

اتسعت الحركة الاستشراقية في البلاد العربية في القرن التاسع عشر لتشمل مختلف نواحي الحياة من لغة وأدب وفكر واقتصاد وسياسة، فتوجهت لدراسة المنجزات الحضارية في الشرق وخاصة شبه الجزيرة العربية لأنها كانت حلقة وصل بين الحضارات القديمة والحضارات الحديثة[١]. وهذا مما دعا الكثرة الكاثرة من الكتاب العرب والمسلمين المحدثين والمعاصرين إلى القول أن الاستشراق هو الوجه الآخر أو المدّون للسياسة الاستعمارية في الشرق، وذلك من خلال تحديد ثلاثة مفاهيم له هي: انه ذو دلالة علمية في معرفة الآخرين، وانه أسلوب فكري يقوم بين غرب يدعي انه يعرف بنفسه وشرق قابل لمعرفة غيره وعاجز ذاتياً عن معرفة نفسه وكونه متداخلاً مع بنى الدولة الحديثة في الغرب[٢].

إن كلمة الاستشراق تطلق على كل من يتخصص في أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أو من بعيد، فكانت تطلق – حتى في عهد قريب – على دارسي الآداب الشرقية أو اللغات الشرقية أو المتخصص في تاريخ إحدى الدول الشرقية أو المتخصص في علم سيسولوجية أو انثروبولوجية الشعوب الشرقية أو انه أسلوب للتفكير يتركز على التميز الانطولوجي والاستيمولوجي بين الشرق والغرب[٣] وقد تضافرت عوامل كثيرة دفعت إلى ظهور هذه الحركة تمثلت في

---

(١) كتاب البديع لابن المعتز آراء المستشرق كراتشكوفسكي، د. محمد قدوح، مجلة الفكر العربي العدد السادس والأربعون، السنة الثامنة، حزيران، ١٩٨٧، ص٢٥٨.

(٢) ثقافة الاستشراق وعلاقة الشرق بالغرب، رضوان السيد، عالم الفكر العدد ٣١، السنة الخامسة، ١٩٨٣، ص٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٠.

الصلات التجارية والحضارية والثقافية بين الشعوب، فموقع العالم العربي متميز جغرافيا وحضاريا وثقافيا كما إن حب السيطرة قد ساهم في تقوية هذه الحركة، لذلك اتخذ وجوها متعددة: سياسية واقتصادية وعسكرية.

ولما كان بحثنا يتعلق بحركة الاستشراق الروسي، فإننا نلاحظ أن حركة الاستشراق بدأت متأخرة نسبيا فبدأ اهتمام الروس بالعرب منذ القرن الثامن عشر، واتخذ الاهتمام شكلا علميا واقتصاديا وثقافيا وعسكريا أيضا، وقد دعا إليه القيصر بطرس الأكبر ضمن سياسة الانفتاح على الشعوب المسلمة وخاصة المجاورة كتركية وإيران والأفغان والتتر وغيرهم. وقد تم ذلك عبر الرحلات التجارية والبعثات الدينية الارثوذوكسية إلى الأماكن المقدسة في فلسطين وغيرها. فكونوا انطباعات عن العالم العربي الحديث، فكانت النواة الأولى لاهتمام الروس بالثقافة الشرقية العربية[٤]. حتى إن بعض الكلمات العربية بدأت تقتحم اللغة الروسية مثل كلمة (أرباط والماز ومثقال ورحل). كما دخلت مصطلحات عربية الأصل إلى اللغات الأوربية لتدل على مستوى العلاقة بينهما مثل (الحوالة والكمبيالة). كما انتقلت إليهم بعض العادات والتقاليد، فعرفوا الدولاب، كما عرفوا بعض المزروعات كالرز والبطيخ والمشمش[٥] التي دخلت عن طريق الحجاج إلى فلسطين أو عن طريق الإشعاع الحضاري العربي والإسلامي، وبالذات الإسلام الذي اعتنقته شعوب آسيا الوسطى، كذلك عن طريق المخطوطات العربية من علم وشعر ونوادر وروايات وفلسفة[٦].

---

(٤) المصدر نفسه، ص٢٢٥.

(٥) كتاب البديع لابن المعتز وآراء المستشرق كراتشكوفسكي د. محمد قدوح، ص٢٥٩.

(٦) ثقافة الاستشراق وعلاقة الشرق بالغرب، د. رضوان السيد، ص٢٢٨.

لقد بدأت حركة الاستشراق الروسي الجدية في بداية القرن التاسع عشر حيث أعلن عن تشكيل هيئة جامعية ١٨٠٤ فبدأت جامعة خاركوف وقازان بتعليم اللغات الشرقية وكان أول أستاذ قام بهذه المسؤولية هو (أ. ب. بيرنيدت)[٧] ثم خطا بعد ذلك خطوات فافتتح عدداً من المعاهد والأقسام لتعليم اللغة العربية والحضارة العربية الإسلامية، فعرف عندهم بعض الأسماء البارزة يضيق المجال لذكرها، ولكن كراتشكوفسكي يبقى اسماً بارزاً ومبدعاً في هذه الحركة[٨].

لقد أعطى كراتشكوفسكي الأدب العربي جلّ اهتمامه وعنايته فسلط الأضواء على جوانب كثيرة منها اللغوية والنحوية والأدبية والبلاغية، فقدم حول هذه الجوانب كثيراً من الآراء التي تعد مميزة ولذلك فقد تعددت مؤلفاته وتنوعت بين نشر للنصوص العربية القديمة وترجمات لنصوص عربية قديمة أو دراسات حول الأدب العربي المعاصر، ودراسات للأحوال الحاضرة في العالم العربي جمعت في مؤلف من ستة أجزاء. تناول في الأول منه الأعمال التي تصف المراجع العربية في التاريخ والجغرافية وتاريخ شعوب الاتحاد السوفياتي وقضايا علم اللغة، أما الجزء الثاني فضم أعمال كراتشكوفسكي وأبحاثه في الأدب العربي، والثالث احتوى على أعمال كراتشكوفسكي في الأدب العربي الحديث وأعلامه واتجاهاته. وفي الرابع

---

(٧) كتاب البديع لعبدالله بن المعتز آراء المستشرق الكبير كراتشكوفسكي، د. محمد قدوح، ص٢٥٩.

(٨) انظر ترجمته في موسوعة المستشرقين د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص٣٢١ _ ٣٢٥، وانظر مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مجموعة مؤلفين، الرياض، مكتب التربية لدول الخليج، ١٩٨٥، وانظر تاريخ الأدب الجغرافي، كراتشكوفسكي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية موسكو، ١٩٥٧، ص١-٧، وانظر مجلة الفكر العربي العدد ٣١ / ١٩٨٣.

جاءت الأعمال الأدبية الجغرافية وخصص الخامس لحركة الاستشراق، أما السادس فقد قصره على كتاب البديع لابن المعتز.

يعد كراتشكوفسكي في مقدمة المستشرقين القلائل الذين أعاروا علم البديع بشكل عام والبديع العربي بشكل خاص قسطاً كبيراً من اهتماماتهم وعنايتهم وذلك من خلال:

أ. تحقيقه لكتاب البديع لابن المعتز.

ب. تتبعه لمسار البديع العربي وتطوره في كتابه علم البديع والبلاغة العربية الذي ترجمه وقدم له محمد الحجيري.

أما تحقيقه لكتاب البديع لابن المعتز فقد تحدث في مقدمته عن:

١. احتمال التأثير الأجنبي في نظرية الشعر العربي.

٢. أسبقية ابن المعتز كمنظر لعلم البديع العربي، حيث يرى كراتشكوفسكي إن ابن المعتز قدّم بحثاً منظماً حول المحسنات الشعرية، فيعدّ عمله أهم ما عرفه القرن الثالث الهجري في تاريخ البديع يؤيد ذلك ما ذهب إليه بروكلمان فقال: " انه أول بحث منهجي في الشعر والبلاغة "[٩]. لقد ركزّ كراتشكوفسكي اهتمامه على الدور الذي لعبته نظرية أرسطو الشعرية في تاريخ النقد العربي بشكل عام وعلى مقارنة ابن المعتز في قيامه بالخطوات الأولى عند العرب بغيره. حيث يرى أن العرب مبدعون في عملهم الشعري والبلاغي، لهم شخصيتهم الفنية المستقلة، وبذلك فانه يرى أن نظرية نقد الشعر عند العرب لم تكن متأثرة في نشأتها بالهنود ولا بالفرس ولا حتى باليونان " من الصعب إيجاد

---

(٩) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان نقلة إلى العربية عبدالحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٧٤، ٢: ٥٨.

آثار للنفوذ اليوناني في نشوء البديع العربي ". فقد ولد البديع العربي في بيئة تختلف عن البيئة التي نشأ فيها البديع اليوناني كل الاختلاف[١٠] فنشأ في أوساط اللغويين العرب الذين لم يستندوا في أبحاثهم إلى نظرية أجنبية بل إلى استقصاء لغتهم ألام، وهذا ما جعل المستشرق الروسي يؤكد أن ابن المعتز في كتابه البديع يعد رائدا ومبتكرا لفن البديع في أدب العرب[١١].

إن كتاب البديع الذي وضعه ابن المعتز (٢٧٤ هـ) ليس مقصورا على البديع كما يبدو من اسمه فقد تناول فيه أساليب شتى من البديع كما تحدث فيه عن الأسس النظرية حول التجديد في الشعر العربي في زمنه، وهذا ما جعل بعض الباحثين العرب وغيرهم يركزون اهتمامهم على هذا الكتاب لأنه يمثل النواة الأولى في علم البيان العربي.

لقد درس كراتشكوفسكي الكتاب فوقف عند محتوى الكتاب ومنهجه ومصطلحاته وتأثير صاحبه فيمن جاء بعده. ففي دراسته لمحتوى الكتاب يرى أن الكتاب يركز الاهتمام على الجديد في الشعر وسماه معاصروه (البديع) الذي يمكن ترجمته " بالأسلوب الجديد " حيث كثر استخدامه في عصر ابن المعتز ولا سيما في قصائد أبي تمام، فكشف إبن المعتز هذه الأشكال ورتبها في أبواب خمسة هي: الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد العجز على الصدر والمذهب الكلامي. كما يشير إلى اعتراف ابن المعتز بان الأصمعي بحث قبله

---

(١٠) كتاب البديع آراء المستشرق كراتشكوفسكي د. محمد قدوح، ص٢٦١ المرجع السابق (المقدمة بالإنجليزية) ص٧.

(١١) علم البديع والبلاغة عند العرب كراتشكوفسكي ترجمة محمد الحجيري، دار الكلمة للنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٣ ص٣٣.

في فنون البديع واهتدى إلى الجناس والجاحظ بدوره قد اهتدى إلى ما يسمى بالمذهب الكلامي[١٢] ويرى كراتشكوفسكي إن ابن المعتز لم يعقد مادة كتابه فوضح الهدف العام من كتابه بلغة سهلة معبرة فيشير إلى ذلك قائلاً " قد قدّمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القران واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع، ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعُرف في زمانهم حتى سُمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه حتى غلب عليه وتفرع فيه واكثر منه، فاحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف، وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة، ولربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ويزداد حظوى بين الكلام المرسل، وقد كان بعض العلماء يُشبّه الطائي في البديع بصالح بن عبدالقدوس في الأمثال ويقول: لو أن صالحاً نشر أمثاله في شعره وجعل بينها فصولا من كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على مدّ ميدانه وهذا اعدل كلام سمعته في هذا المعنى[١٣].

كما وقف عند منهج الكتاب فأبدى ملاحظاته حول المنهج العام للكتاب فقال: " إن طريقة وضع المواد خصوصا في أبواب خمسة كبيرة متساوية تقريباً تعتبر بسيطة، فهو لا يعطي دائما في البداية تعريفا للفن البديعي المدروس ولكنه

---

(١٢) كتاب البديع وآراء المستشرق كراتشكوفسكي، د. محمد قدوح ص٢٦٢.

(١٣) البديع لابن المعتز تحقيق كراتشكوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٨٢ ص١.

يعرض أمثلة من القرآن تليها أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومقاطع من الفترة القديمة وبعد ذلك تقابلنا أمثلة من الشعراء العرب القدامى والكلاسيكيين وأمثلة نثرية ومن ثم شعرية تعود لفترة أحدث عهداً وأحياناً يظهر خلل في هذا النظام أثناء عرض المادة فتقع الأمثلة الشعرية مكان النثرية والعكس، ومن وقت لآخر يعلق المؤلف على عدم نجاح الشاعر في اختيار الشكل الفني البديعي ونقل الأمثلة من البابين الآخرين من البديع وتزداد قلتها خصوصاً في عرض المحاسن حيث لا يعطي على بعض المحاسن سوى مثلين أو ثلاثة. أما النوع الأول من المحاسن فقد دعم بمثل واحد من القرآن، وسائر المحاسن مزينة بأمثلة شعرية دون ترتيب زمني ولا يعرض أمثلة نثرية كما في الأبواب الخمسة الأولى من تقديم البديع. وأثناء عرض التشبيه تزداد الأمثلة العروضية من جديد، وينتهي البحث عند ابن المعتز دون خاتمة، حيث أن بعض العبارات الدعائية قد تكون إضافة من الناسخين على حد تعبيره[١٤]. فكان يذكر بعض الإيضاحات اللغوية لكلمات معينة أو مجموعة من الكلمات كما أن ذكره للمراجع التي رجع إليها ابن المعتز نادرة.

كما درس كراتشكوفسكي المصطلحات البديعية التي ذكرها ابن المعتز في كتابه وعدها في خمسة ألوان بديعية وهي الأستعارة والتجنيس والمطابقة ورد العجز على الصدر والمذهب الكلامي، وما سواها فهي من محاسن الكلام والشعر وهي:الالتفات والاعتراض والرجوع وحسن الخروج وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارق من الهزل الذي يراد به الجد، وحسن التضمين

---

(١٤) المؤلفات الكاملة، كراتشكوفسكي، ج٦، ص١٠٧. نقرا عن كتاب البديع وآراء المستشرق كراتشكوفسكي د. محمد قدوح ص٢٦٤.

والتعريض والكناية والإفراط في الصفة من التشبيه، ولزوم ما لا يلزم وحسن الابتداء، كل هذه المصطلحات لم يعتمد ابن المعتز في ذكرها على أساس معين فشابها الخلط وعدم الدقة وهذا ما جعل كراتشكوفسكي يرى أن عمل ابن المعتز لم يكن ناضجا ولا مبوبا " إن نقد عمل ابن المعتز من ناحية المحتوى أو من ناحية تصنيف الفنون البديعية ليس صعبا، فلا وجود لتصنيف في عمله من ناحية جوهرية، فهو يضع حدا فاصلا بين الفنون البديعية والمحاسن، بحيث أصبح هذا الفاصل مبهما لدرجة انه لا يصادف عند باحث عربي غيره"(١٥).

لقد وقف كراتشكوفسكي عند هذه المصطلحات ودرسها وحاول ربطها بما يقابلها في اللغات الأوربية فالاستعارة عند ابن المعتز أول الأشكال البديعية وتترجم عادة Metaphor لكن كراتشكوفسكي يرى أن الاستعارة في المعنى العربي تختلف عن Metaphor بالنسبة للغات الأوربية وليست مساوية لها والمصطلح الثاني" التجنيس " أو الجناس والمجانسة فهو قريب من المعنى Syntatic assimilaion)

(وهو قريب من المعنى الذي أعطاه سيرين ,Homogenmachen homogeneitat أما عند " فليغر " فنرى ترجمة أخرى سماها "اللعب بالكلام " وعند كينيغ Allitenation إعادة الأصوات أو المقاطع المتشابهة مع إن النقاد العرب قد وجهوا نقدهم لابن المعتز على هذا المصطلح إلا انه شق طريقه بثبات يقول ابن المعتز في باب الجناس " هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها وقال الخليل: الجنس لكل ضرب من الناس والطير

---

(١٥) كتاب البديع وآراء المستشرق كراتشكوفسكي، د. محمد قدوح ص٢٦٤.

والعروض والنحو فمنه ما تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها ويشتق منها ..... "[١٦].

وما انتهى كراتشكوفسكي من دراسة المصطلحات البديعية، حتى انتقل إلى دراسة محاسن الكلام التي عدها ابن المعتز من غير الفنون البديعية فاستوقفته بعض المصطلحات التي ورد ذكرها في الكتاب فوقف عند الالتفات الذي عرفه" بأنه انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الأخبار وعن الأخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك "[١٧] ويعلق كراتشكوفسكي على هذا المصطلح بقوله إن ابن المعتز يقصد في القسم الأول من التعريف ومن الأمثلة المعروفة " بالالتفات " الانتقال بالكلام من المخاطبة المباشرة إلى غير المباشرة والعكس، وفي القسم الآخر من التعريف يفهم الانتقال بالكلام من معنى إلى آخر دون تحديد[١٨]. ولذلك فإنني اعتقد أن تعليق كراتشكوفسكي على كلام ابن المعتز هو الذي كان يدور في ذهن ابن المعتز لان الانتقال من المخاطبة إلى الأخبار هو نفسه الانتقال من المخاطبة إلى غير المباشرة كما وقف عند المصطلحات الأخرى من محاسن الكلام وأبدى عليها بعض الملاحظات[١٩].

كما اسهم في بيان تأثير ابن المعتز في تطور النقد عند العرب فهو يرى انه أول من كتب عن البديع بلغة شعرية بل أشير إليه على انه عالم نسب إليه أول تصنيف للصور الأدبية "البديعية " ولذلك فان لعمله أهمية كبيرة فمنه انطلقت

---

(١٦) البديع لابن المعتز تحقيق كراتشكوفسكي ص٢٥.

(١٧) المصدر السابق ص٥٨.

(١٨) كتاب البديع لابن المعتز آراء المستشرق كراتشكوفسكي، د. محمد قدوح، ص٢٦٤.

(١٩) المرجع السابق، ص٢٦٤.

وتفرعت كل النظريات الأدبية عند العرب أو على الأقل نظريات البلاغة والبيان العربي[٢٠]. ولم يقف كراتشكوفسكي عند ذلك، بل بحث تأثير ابن المعتز في فترة ما بعد القرن الثالث الهجري حيث عرفت هذه الفترة إبداع شاعرين عظيمين كان لهما دور في إعطاء النقاد مادة فنية وافرة هما " أبو تمام والمتنبي " فكانت أشعار أبي تمام مادة صالحة لنقد ابن المعتز أما المتنبي فقد كانت أشعاره أساس كتاب الوساطة للجرجاني كما اتخذ الآمدي في كتابه " الموازنة " أشعار أبي تمام والبحتري مادة أساسية في موازنته، ولذلك بين تأثير ابن المعتز في باحثي الأدب والكتابة ونقد الشعر مثل كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي وكذلك الحاتمي في كتابه حلية المحاضرة والعسكري في الصناعتين وقدامة في نقد الشعر، حيث يرى أن ما يقارب ثلث بحث ابن المعتز في البديع وقع في كتاب العسكري. كما بين تأثير ابن المعتز في باحثي المغرب حيث يرى أن " الغالي " كان أول من نقل مصطلحات ابن المعتز البديعية إلى إسبانيا. كما انعكست أبحاث ابن المعتز على الخفاجي والزمخشري بل إن السكاكي في " مفتاح العلوم " كان متأثرا بطرح ابن المعتز في فنونه فعرض لتسعة وعشرين شكلا بديعيا، كما إن أبحاث شهاب الدين الحلبي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم تخل من اثر ابن المعتز، واعتمد الباحث اللغوي والمؤرخ السيوطي على ابن المعتز[٢١] ولذلك يرى كراتشكوفسكي إننا لا نكاد نعثر على عمل نقدي إلا وله صلة من قريب أو من بعيد ببديع ابن المعتز[٢٢]

---

(٢٠) علم البديع والبلاغة عند العرب كراتشكوفسكي، ترجمة محمد الحجيري، ٥٥-٥٦.

(٢١) كتاب البديع لابن المعتز و آراء المستشرق كراتشكوفسكي، د. محمد قدوح، ص٢٦٦.

(٢٢) المرجع السابق، ص٢٦٦.

وهو يؤيد بذلك ما ذهب إليه ابن خلدون[٢٣].

أما الجهود الأخرى التي قدمها هنا المستشرق خدمة للعربية فجاءت من خلال تتبعه لمسار البديع العربي وتطوره عبر كتابه " علم البديع والبلاغة عند العرب " الذي ترجمه محمد الحجيري، فحاول فيه وضع صورة واضحة لتطور الشعر العربي فأشار إلى إجماع المهتمين بالترجمة عند العرب على اعتبار ابن المعتز أول من كتب عن البديع بلغة شعرية بل انه عالم ينسب إليه أول تصنيف للصور الأدبية "البديعية "[٢٤] ولذلك كان لعمله هذا أهمية كبيرة إذ انطلقت منه وتفرعت كل النظريات الأدبية عند العرب أو في الأقل نظريات البلاغة والبيان العربي وقد تحدث فيه كراتشكوفسكي عن ولادة الشعر العربي فرأى انه تسربت إلى الشعر العربي مؤثرات غربية عبر مجريين حضاريين هما: المجرى الساساني الفارسي والمجرى اللاتيني البيزنطي. فانتقلت إليه بعض التأثيرات الفارسية من خلال (الديوان) الذي كان في مجمله ساسانيا، فعبدالحميد الكاتب كان قد نقل بحثا عن الرسائل الفارسية إلى العربية[٢٥].

أما التأثير اليوناني فلم يكن دوره واضحا في تطور الشكل اللغوي والأسلوب الأدبي عند العرب، ولكن اسم أرسطو – كما يرى كراتشكوفسكي يدعونا للتوقف بشكل أدق عند العلاقات الواضحة بين تراث اليونان والنظرية الأدبية عند العرب وخصوصا على صعيد الشعر، ولذلك فلم يكن تأثير ارسطوعلى أدباء القرن الثالث

---

(٢٣) مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ص٥٥٢.

(٢٤) علم البديع والبلاغة عند العرب، كراتشكوفسكي، ترجمة محمد الحجيري، ص٥٦.

(٢٥) علم البديع والبلاغة عند العرب، كراتشكوفسكي، ص٥٧.

الهجري واضحا فكانت تأثيراته في حقلي الشعر والأدب عرضية[٢٦].

ويرى كذلك أن الجاحظ كان صاحب دور مميز في الدراسات البديعية فهو الذي مهد السبيل أمام ابن المعتز، وان دراسته تعد النواة أو البذرة التي نمت وكونت كتاب البديع، مع انه لا يوجد في مؤلفاته أي اثر يدل على دراسة منظمة ودقيقة في منهجيتها لقضايا الأسلوب الشعري والبلاغة العربية بسبب نزوعه إلى الاستطراد الذي غلب على كتابته، فكان مأخوذا بالنظريات والآراء الشمولية والتعميمات الواسعة ولذلك فان الجاحظ يوازي بقيمته ابن المعتز لان أعماله كانت الأولى التي تتناول هذه المادة البلاغية عند العرب من خلال كتابه البيان والتبيين الذي يضم عددا من أسماء الخطباء والأشخاص المشهورين والقصص البليغة اللطيفة[٢٧].

ويقرر أن دراسة الجاحظ حول البديع كان يكتنفها الغموض العام في الاصطلاحات التي يستعملها على الصعيد العلمي، فجاءت لفظة البديع عنده بمعناها اللغوي العادي وليس بمعناه الاصطلاحي الجديد، حيث وردت بمعنى عظيم ومدهش ... فيقول عن الحيوانات بأنها بديع المعرفة بفضل غرائزها[٢٨] كما انه سمى الحالة الخاصة لتدجين الذئب بأنها عظيمة وخارجة عن المألوف[٢٩]. كما قال عن سبك القرآن وبنائيته بأنها بديع[٣٠]. حتى بالنسبة للشعر لم تأخذ هذه اللفظة مدلولا اصطلاحيا فقد ذكر مثلا قطعة شعرية مدهشة جديرة بالثناء وتستحق غاية

---

(٢٦) المرجع السابق ص٥٩.

(٢٧) المرجع السابق ص٦٩.

(٢٨) الحيوان ، الجاحظ ١ / ١٨.

(٢٩) المصدر السابق ٦ / ٨.

(٣٠) المصدر السابق ٤ / ٣٢.

الاستحسان[٣١] وقد استعمل كلمتي ظريف ولطيف بنفس المدلول السابق حتى نجده يقول " أبيات شعرية لطيفة ... شاعر لطيف أو ظريف في أشعاره"[٣٢] ثم نرى في كتابه البيان والتبيين أن هذه اللفظة (البديع) لم تأخذ مدلولها الأصلي المعروف الشائع فترد عنده على انه بمعنى الجميل[٣٣].

ويؤكد كراتشكوفسكي أن الجاحظ يرى أن لفظة البديع وصلت إلينا عن طريق شعر (العتابي) الذي كان قد قلد بشارا في أسلوب البديع فقال الجاحظ (فقد سار على نهجه في البديع شعراء مولدون مثل: منصور النمري ومسلم بن الوليد)[٣٤].

كما ذهب المستشرق الروسي إلى استقصاء صور البديع التي جاءت في كتابي الجاحظ البيان والتبيين والحيوان، كالاشتقاق والكناية والتعريض وعقد مقارنة بين الجاحظ وابن المعتز وأكد فيها تميز الجاحظ على ابن المعتز لان الجاحظ يتميز بعقلية هادئة وذوق متميز وأفق واسع بعيد الأغوار مزفوف بتحليل عقلي[٣٥].

أما دراسته لقضية ولادة الشعر العربي، فيرى أن الشعر العربي ولد ونشأ في حقل الدراسات اللغوية القومية، وقد اتبع منذ انطلاقه أسسا وقواعد لغوية، ولذلك لا يمكن اعتبار الجاحظ أول الدارسين لهذه القضية بسبب قلة ميله للدراسات اللغوية،

---

(٣١) المصدر السابق ٣ / ١٧.

(٣٢) المصدر السابق ١ / ١٣٠

(٣٣) البيان والتبيين، الجاحظ، ١: ٣٩.

(٣٤) المصدر السابق ٢: ١٧٥.

(٣٥) علم البديع والبلاغة عند العرب، كراتشكوفسكي ترجمة محمد الحجيري ص٨٥.

ولكن قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) قد اسهم إسهاما في هذه القضية، فكان يتمتع بالميزات الفكرية نفسها التي يتمتع بها ابن المعتز، بل إن ذوقه الأدبي ونشأته الفلسفية جعلاه متميزا عن أبناء عصره، فاستطاع أن يسهم – من خلال كتابه نقد الشعر – إسهاما فعالا في تطور الشعر، هذا الكتاب الذي يتميز بتركيبه وأسلوبه وحسن تبويبه، ولذلك يتفوق بغنى محتواه على كتاب البديع، كما انه استوعب بدقة عملية نظم الشعر، فابتدع مصطلحات كثيرة اربت على العشرين، خمسة منها تتوافق مع ما ذكره ابن المعتز في كتابه، وهذا ما يؤكد انه اطلع عليه فاستخدمه واستفاد منه، لكنه كان لديه ميلا خفيفا لتجنب اصطلاحات ابن المعتز قدر المستطاع، وإبدالها بعبارات واصطلاحات أخرى، فكان النجاح حليفه في بعض الأحيان، إلا انه لجأ أحيانا كثيرة إلى الشروحات والتأويلات[٣٦] مع أن قدامة قد استفاد من كتاب ابن المعتز إلا انه تعمد عدم الإشارة إليه من قريب أو من بعيد لأنه كان يمثل بالنسبة إليه خصمه في ميدان الدراسات الأدبية[٣٧] ومما تجدر الإشارة إليه إن كتب قدامة لاقت الاهتمام والتقدير عند الكتاب الذين جاءوا بعده، على الرغم من بروز الأثر اليوناني فيها بوضوح.

ويقرر كراتشكوفسكي إن نظريات الشعر العربي ودراساته تتمثل بثلاثة علماء هم: الجاحظ وقدامة وابن المعتز، فالجاحظ كان يسعى للإحاطة بكل أنواع العلوم فيأخذ من كل علم بطرف وقدامة أحد المنطقيين الذين جرفهم تيار الفلسفة اليونانية، أما ابن المعتز فكان مؤسسا لفرع جديد من فروع العلوم عند العرب[٣٨].

---

(٣٦) المصدر نفسه ص ٩٦ ـ ٩٨.

(٣٧) علم البديع والبلاغة عند العرب: ص٩٥.

(٣٨) المصدر السابق ص٩٨.

ومن جهود هذا المستشرق التي تحسب له انه قام بدراسة وتتبع اثر كتاب البديع لابن المعتز في الدراسات النقدية والبلاغية التي جاءت بعده، فبدأ بكتاب الوساطة للجرجاني وانتهى بأبي علي القالي من علماء الأندلس، فكشف عن وجوهه التأثيرية، فمثلا نراه يقف عند كتابة (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) للآمدي فيرى انه اتخذ البديع مصدرا من مصادره العلمية الكبيرة، كما إن الآمدي تبنى رأي ابن المعتز في أن المحدثين وأبا تمام ليسوا أول السابقين إلى اختراع البديع وان أبا تمام افسد الشعر بكثرة البديع، واخذ الآمدي عنه كثيرا من الأمثلة وخاصة عند حديثه عن باب التجنيس[٣٩]. وهكذا نراه يقف عند اثر كتاب ابن المعتز (البديع) فيمن جاءوا بعده ليؤكد أن هذا المؤلف كان صاحب مدرسة بلاغية لها تلاميذها واتباعها وان القواعد البديعية التي أرساها وتناولها في كتابه كانت بمثابة إضاءات للدارسين من بعده ولذلك لا نعدم أثرا له عند ابن الأثير والخوارزمي في مفاتيح العلوم والرماني في إعجاز القرآن والصاحب بن عباد في حديثه عن المتنبي والحاتمي في الرسالة الموضحة والحسن بن الوكيع في المنصف والعسكري في الصناعتين والتوحيدي في رسالته الصداقة والصديق وابن رشيق القيرواني في العمدة في محاسن الشعر وأبو علي القالي في الأمالي[٤٠].

ويقرر كراتشكوفسكي أيضا إن كثيرا من البلاغيين والنقاد ممن جاءوا بعد ابن المعتز قد اعتمدوا عليه اعتمادا واضحا وخاصة في اخذ الشواهد والأمثلة التي ذكرها ابن المعتز في كتابه البديع من الشعر العربي والقرآن الكريم والسنة النبوية كما هو الحال عند الرماني في كتابه إعجاز القرآن والحاتمي في حلية المحاضرة

---

(٣٩) علم البديع والبلاغة عند العرب، كراتشكوفسكي، ترجمة محمد الحجيري: ص١٠٣.

(٤٠) المصدر نفسه ص ١٠٠ _ ١٢٠.

والحسن بن وكيع في المنصف[٤١].

ويقف عند العسكري صاحب الصناعتين ليقرر أن العسكري كان بمثابة الوريث الشرعي للأفكار البلاغية والنقدية التي جاء بها ابن المعتز، فاخذ عنه سلسلة من المصطلحات البديعية كالتضمين والاعتراض والمطابقة والتجنيس والغلو والكناية والالتفات والاستطراد والاستثناء، وهذا ما دعا كراتشكوفسكي إلى القول بان ثلث كتاب ابن المعتز قد ضمنه العسكري في كتابه[٤٢].

كما بين اثر وتأثير ابن المعتز عند المغاربة وخاصة عند القيرواني وأبو علي القالي، فأشار إلى عدم وجود تأثير واضح جلي، إلا انهم ساروا على النهج الذي اختطه ابن المعتز في البديع من ذكره لأنماط بديعية وبيانية، فكأنهم قد نقلوا هذا العلم من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب[٤٣]، وخاصة ابن رشيق الذي رجع إليه واحتذى حذوه، فأشار إلى كتاب ابن المعتز ونوه به ونقل عنه تعريفه للتجنيس فقال (وهو أول من نحا هذا النحو وجمعه) [٤٤] كما نقل عنه تعريف التصدير (رد العجز على الصدر)[٤٥].

أما الحصري القيرواني – كما يروي كراتشكوفسكي – فقد كان قريبا جدا من ابن المعتز لا من حيث كونه شاعرا، وإنما كونه عالما وناثرا، ويدل على ذلك وجود شواهد في كتابه (زهر الآداب) وردت عنده، كما نجد في مؤلفاته الاطلاع

---

(٤١) الصدر نفسه: ١٠٧، ١٠٨.

(٤٢) المصدر نفسه: ١٠٩ – ١١٢ وانظر في ذلك كتاب الصناعتين للعسكري ص٣٦، ٣٠٧، ٣٥٧، ٣٦٨، ٣٩٤، ٣٩٨، ٤٠٨.

(٤٣) المصدر السابق: ١١٤- ١٢٠.

(٤٤) العمدة لابن رشيق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١، ١: ٣٣١.

(٤٥) المرجع السابق ٢ /٣.

الواسع والمعرفة الشاملة بكل الدراسات البلاغية والنظريات الأدبية، كما وردت عنده أسماء كالجاحظ وقدامة والمبرد وغيرهم..... (٤٦).

ومن جهوده أيضا انه وقف عند كتاب الشعر لأرسطو ليكشف عن إمكانية تأثر العرب به، حيث يرى أن هذا الكتاب (فن الشعر لأرسطو) لم يترك أي تأثير في الآداب العربية عموما فتأثيراته من جذورها كانت ولا زالت تدور خارج فلك التراث العربي الأصيل، واتخذ من ابن سينا وابن رشد – اتباع المدرسة الأرسطية – مثلا ليؤكد عدم وجود تأثير لكتاب ارسطو عليها(٤٧) ومثل هذا الاجتهاد يخالف المألوف في الحضارات الإنسانية فهي حضارات تتأثر وتؤثر في غيرها، كما إننا لا نستطيع إنكار اثر الفن الإغريقي في البلاغة العربية، فقد انقسم الدارسون حول هذه القضية إلى مؤيد ومعارض، فالمؤيدون يؤكدون وجود اثر لكتابي ارسطو على الأدب العربي ومثال ذلك الدراسة التي قام بها د. مجيد الناجي و د. شكري عياد(٤٨) والمعارضون ينكرون وجود اثر لهذا الكتاب في البلاغة العربية أو الأدب العربي لجهل العرب بنظم اليونان وآدابهم فلم يستطيعون فهم الأنواع الأدبية والخطابية التي ذكرها ارسطو وما يتصل بها(٤٩).

ومن الإسهامات التي قام بها كراتشكوفسكي انه قام بتتبع تطور الأدب الجغرافي العربي فوضع كتابا سماه تاريخ الأدب الجغرافي العربي نقله إلى العربية

---

(٤٦) علم البديع والبلاغة عند العرب ص١١٣- ١١٤.

(٤٧) علم البديع والبلاغة عند العرب: ١٢١- ١٢٣.

(٤٨) الأثر الإغريقي في البلاغة العربية، د. مجيد الناجي، مطبعة الأدب النجف، ١٩٧٦، وانظر في الشعر لأرسطو تحقيق د. شكري عياد، ص٢٢٥ وما بعدها.

(٤٩) نقد النثر، قدامه بن جعفر " مقدمة الكتاب" دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠، ص١٣.

صلاح الدين هاشم فيقدم فيه عرضا منظما للأدب الجغرافي ابتداء من ظهور التصورات الجغرافية الأولى عند العرب التي نلتقي بها في اقدم آثار الشعر الجاهلي وفي القرآن، ثم يتتبع ميلاد الجغرافية الرياضية عند العرب معتمدا في ذلك على المصادر الأصلية وعلى الدراسات الحديثة ويبحث مسألة علاقتها بالعلم اليوناني والهندي كما تتبع ميلاد بقية فروع الجغرافية الأخرى مثل الجغرافيا الوصفية والرحلات والجغرافية البحرية والجغرافية العامة والإقليمية وهو في خلال ذلك يترجم لمعظم الشخصيات الكبيرة وأصحاب الأصالة ويوضح الروابط والمؤثرات التي تركت أثرها عليهم(٥٠) كما ساهم في تأصيل ظاهرة الكتابة الديوانية التي عرفها العرب وكان لها شكلها الخاص وأساليبها المميزة إذ يعود الفضل فيها إلى عبد الحميد الكاتب الذي يعد من اشهر مؤسسيها، وحاول بيان علاقة هذا النمط الأسلوبي بالتأثيرات الفارسية واليونانية فيرى كراتشكوفسكي إن بعض صور التأثير الفارسية تبدو واضحة من خلال ما ذكر عن عبد الحميد انه نقل بحثا عن الرسائل من الفارسية إلى العربية مع أن المادة المنقولة لا تشير إلى طبيعة هذه الرسائل أو شكلها العام أما فيما يتعلق باليونان فيقرر أن دورهم وتأثيرهم في تطور الشكل اللغوي والأسلوب الأدبي لا يزال غير واضح المعالم ولا يوجد إشارات تؤكد أو تنفي هذا التواصل بين هاتين الثقافتين(٥١).

وخلاصة القول أن هذا المستشرق الروسي قد قدم خدمات تستحق التقدير والاهتمام لما له من باع طويل في تحقيق التراث العربي ودراسة بعض المصادر

---

(٥٠) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، كراتشكوفسكي، نقلة للعربية صلاح الدين هاشم، وراجعه ايغورباليايف، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ١٩٥٧، ص١٠.

(٥١) علم البديع والبلاغة عند العرب، ص٥٧ - ٥٨

التراثية بروح علمية صادقة مخلصة أمينة بعيدة عن التعصب والحقد الذي عرف عن بعض المستشرقين، فسعى في مؤلفاته إلى تأكيد أصالة الذات العربية واستقلاليتها وإبداعها المنفرد المميز.

ولم تقتصر إسهامات هذا المستشرق على البلاغة العربية، إنما كانت له اهتمامات في مجال النقد والأدب نشرها في الجزء الثاني من مؤلفاته تستحق الاهتمام والدراسة والتحليل منها على سبيل المثال لا الحصر فن الشعر عند العرب، تعريف الشعر عند العرب، الإبداع الشعري عند أبي العتاهية جانب من البلاغة الهندية في صيغة عربية وغيرها ومثل هذه الدراسات تحتاج إلى بحث مستقل تكشف عن جهد هذا العالم وأصالته.